



عينة من الكتاب

(للتصفح والاطلاع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شيرلوك هولمز

مغامرة تاج الزمرد

وثلاث قصص أخرى

تأليف: آرثر كونان دويل

ترجمة: سالي أحمد حمدي

تحرير: رمزي رامز حسون



للترجمة
والنشر
الأجيال

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لأربع من قصص
شيرلوك هولمز المنشورة أول مرة عام ١٨٩٢

The Adventure of the Engineer's Thumb
The Adventure of the Noble Bachelor
The Adventure of the Beryl Coronet
The Adventure of the Copper Beeches

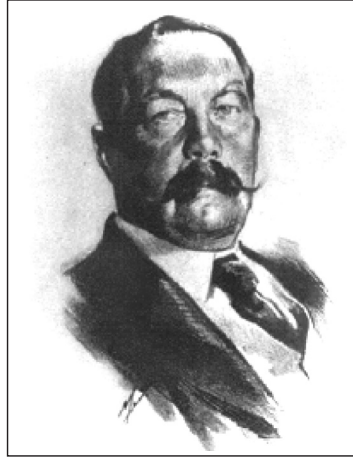
حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا
الكتاب بأي شكل أو بآية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو
إلكترونية أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الثانية

٢٠٢٠



آرثر كونان دوويل

وُلد آرثر كونان دوويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في سكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩ ، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجراحُ الشهير الدكتور جوزيف بلّ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دوويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جراحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرّته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورثسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه

إلى الكتابة أماً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجالات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص، وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري. وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة في اللون القرمزي» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

واحدة من تلك الحوادث كانت عن رجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث بدّل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولما كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى

سكتلندا تغادر محطة كِنغز كروس عند منتصف الليل". وقد
عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس
الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوّهاً
ومحاضراً ناجحاً ومحاوِراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره
المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



عام ١٩٠٠ تطوَّع الدكتور آرثر كونان دويل في حرب البوير (التي دارت في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجراحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقّبها «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

توفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.





شيرلوك هولمز وعالمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهر الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرة مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بلّ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بلّ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومهّتهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرح من الجيش حديثاً، وقد عدت لتوك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل".

وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من

هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحددها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨، وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (شارع بيكر، ٢٢١ب) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته



وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته وإطلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعدته الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاقِبةُ القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو، المحقق الشهير الذي ابتكرته أغانا كريستي). وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وحصل على شهادته الجامعية في الطب سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش وشارك في الحملة الأفغانية، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جفسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة في اللون القرمزي»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يكف يوحس بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، هي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطدت شخصية هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

في السنة التالية بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو) ١٨٩١، فقبولت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخ من بابه الواسع، حيث صارت حديث المجتمع وشغل الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتي عشرة، نُشر

آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «مذكرات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرير عند شلالات رايشنباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة، وعنوانها «المشكلة الأخيرة»، في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على إعادة إحياء شيرلوك هولمز، فأعادته إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الفارغ» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد، فقد تبين أنه لم يُقتل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الفارغ) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شق طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليزز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقه. واستمر نشر سلسلة

«عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة رواية شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣. ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (١٩١٤/٩-١٩١٥/٥) التي حازت على إعجاب النقاد في كل الأوقات. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٩٢١/١٠-١٩٢٧/٤) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومَنسِيَّة ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب غير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من مؤلفات نحو مئة وستين، منها ستون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالم اسمه البروفيسور تشالنجر

(أشهرها رواية «العالم المفقود») ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسم شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسّام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ قصص هولمز منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بلّور صورة شيرلوك هولمز وطبّعها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأ في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الست الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زينت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «ذكريات شيرلوك هولمز: الظهور الأخير» كل من وُلْتَر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وتشارلز هليدي وألك بول وجوزف سمبسون وهنري بروك. أما السلسلة الأخيرة (قضايا شيرلوك هولمز) فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم هوارد إلكوك وفرانك وايلز وألفرد جليبرت.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند». أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليرز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دور ستيل، ومنهم جوزف فريدرتش وريتشارد غوتشمت ووليم هايد.

* * *

مغامرات شيرلوك هولمز

(٩)

مغامرة إِبْهام المهندس

نُشرت للمرة الأولى في مجلة «ستراند» الشهرية

في عدد آذار (مارس) ١٨٩٢

وقعت هذه الأحداث التي أسردها الآن في صيف عام ١٨٨٩، بعد زواجي بوقت قصير. وكنت قد عدت إلى مزاوله الطب في عيادة مدنية وتركت أخيراً مسكن هولمز بشارع بيكر، مع أنني كنت أزوره باستمرار. وقد ازدهرت عيادتي بالتدريج، ولأنني أعيش على مسافة غير بعيدة من محطة بادغتون فقد صار من مرضاي الذين يترددون على عيادتي بعض موظفي المحطة، وأخذ أحدهم (وكنت قد عالجتَه من مرض مؤلم مزمن) يعلن عن مزياي دون كلل ويرسل إلى عيادتي كل صاحب معاناة ممن يملك عليهم تأثيراً.

أيقظتني الخادمة حين طرقت على الباب في صباح أحد الأيام قبل الساعة بقليل لتعلن عن قدوم رجلين من محطة بادغتون، قائلة إنهما ينتظران في غرفة الكشف، فارتديت ملابسى بسرعة لأنني أعرف - بالتجربة - أن حالات موظفي السكك الحديدية نادراً ما تكون تافهة، وعجلت بالنزول إلى الطابق السفلي. وبينما أنا أنزل خرج عميلي القديم من الغرفة وأغلق الباب خلفه بإحكام، ثم همس قائلاً وهو يهزّ بإبهامه فوق كتفه: لقد أحضرته إليك، إنه بخير.

أوحى إليّ تصرفه بأنه أقدم على حبس مخلوق غريب في غرفتي، فسألته: ما الأمر؟

فهمس قائلاً: إنه مريض جديد، فكرت في إحضاره

بنفسي حتى لا يستطيع التملّص ، وها هو هنا بأمن وسلام.
يجب أن أنصرف الآن يا دكتور، فعندي واجبات مثلك تماماً.

ثم خرج هذا المشجّع الوفيّ دون أن يسمح لي بشكره!

دخلت إلى غرفة الفحص فوجدت شاباً جالساً بالقرب
من الطاولة وقد ارتدى بشكل محافظ بدلة من الجوخ المنقطّ
ووضع على رأسه قبعة من القماش الناعم، وقد نزعها عن
رأسه ووضعها على كتبي، وكانت إحدى يديه مربوطة بمنديل
مبّع بالدم. كان شاباً لا يزيد عمره عن الخامسة والعشرين وله
وجه رجولي قوي، ولكنه كان شاحباً جداً وأعطاني انطباعاً بأنه
يعاني من اضطراب شديد احتاج إلى كل تركيزه ليتحكم فيه.

قال: أنا آسف لأنني قرعت بابك في هذا الوقت المبكر
يا دكتور، ولكن حادثة خطيرة جداً وقعت لي أثناء الليل،
فجئت بالقطار هذا الصباح، وحين سألت في محطة بادنغتون
عن طبيب تکرّم شخص نبيل باصطحابي إليك، وقد أعطيت
الخادمة بطاقتي التعريفية، ولكن يبدو أنها وضعتها على تلك
الطاولة الصغيرة ولم توصلها إليك.

رفعت البطاقة ونظرت إليها وقرأت: "السيد فكتور هاثرتلي،
مهندس هيدروليكي، ١٦ شارع فكتوريا، الطابق الثالث".

كانت تلك هي صفات زائري الصباحي واسمه وعنوانه.
وقلت له وأنا أجلس على كرسي المكتب: أعتذر لأنني تركتك
تنتظر لبعض الوقت. يبدو أنك وصلت لتوك من رحلة ليلية كما

فهمت ، وهذه الرحلات تكون رتيبة في العادة.

فقال: آه، لا يمكن القول بأن ليلتي كانت رتيبة.

ثم ضحك بحرارة شديدة بصوت عالٍ رنانٍ ومالٍ إلى الخلف في كرسيه واهتز جنباه، فثارت غريزتي الطبية ضد هذا الضحك وصحت قائلاً: توقف، تمالك نفسك.

ثم صببت له بعض الماء من الإبريق الزجاجي ، ولكن عملي هذا بقي بلا فائدة، فقد انطلق في واحدة من تلك الانفجارات الهستيرية التي تصيب أصحاب الشخصيات القوية بعد مرورهم بأزمة هائلة وتخطيهم لها، إلا أنه عاد إلى طبيعته ثانية بعد وقت قصير ، ولكنه كان متعباً جداً وشديد الشحوب. شهق قائلاً: لقد تصرفت بحماقة.

- لا ، على الإطلاق، اشرب هذا الماء.

بدأ اللون يعود إلى خديّ الشاحبين وقال: هذا أفضل. والآن يا دكتور أرجو أن تهتم بإبهامي ، أو بالأحرى بالمكان الذي كان فيه إبهامي.

ثم فكّ المنديل ورفع يده التي صدمتني رؤيتها برغم صلابة أعصابي ، فقد رأيت أربعة أصابع وسطحاً بشعاً إسفنجي الشكل أحمر اللون في مكان الإبهام الذي كان قد قُطع أو اقتُلِع من جذوره!

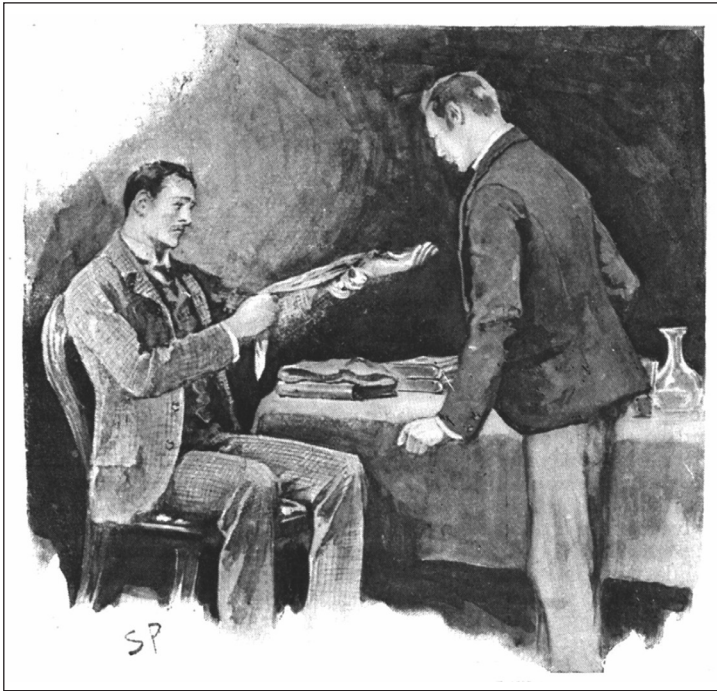
صحت قائلاً: يا إلهي! هذه إصابة رهيبية، لا بد أنك نزت كثيراً.

- نعم، بالفعل، كما أنني فقدت وعيي عندما وقعت
الحادثة، وأحسب أنني غبت عن الوعي لمدة طويلة، وعندما
أفقت وجدت الإصابة ما زالت تنزف، فربطت أحد أطراف
منديلي حول الرسغ بشدة وثبته إلى الأعلى بغصن صغير.

- ممتاز، كان ينبغي أن تكون طبيباً.

- إن الأمر مرتبط بحركة السوائل كما ترى، وهذا يدخل
ضمن اختصاصي.

فقلت وأنا أفحص الجرح: لقد حدث هذا الجرح بواسطة



Sidney Paget (1892)

رسم سدني باجيت (١٨٩٢)

أداة حادة وثقيلة جداً.

فقال: إنه شيء مثل الساطور.

- حادثة على ما أظن؟

- على الإطلاق.

- ماذا إذن؟ هجوم إجرامي؟

- إجرامي جداً.

- إنك تخيفني.

مسحت الجرح ونظفته ثم ضمدته، وأخيراً غطيته بقطعة من القطن وضمادات معقمة، وقد استلقى الرجل دون أي حراك لكنه راح يعضّ على شفثيه من حين إلى آخر، وعندما انتهيت سألته: ما رأيك في هذا العمل؟

- ممتاز، أشعر الآن وكأنني رجل جديد، فقد كنت أشعر بضعف شديد، ولكنني مررت بالكثير.

- ربما كان من الأفضل أن لا تتحدث عن الأمر، فمن الواضح أن هذا سيجهد أعصابك.

- آه، ليس الآن، فأنا مضطر أن أقصّ حكايتي على الشرطة، ولولا هذا الجرح الذي يصلح دليلاً مقنعاً على ما حدث لَكُنْتُ سَافِجاً لو صدّقوا روايتي. إنها قصة غريبة جداً ولا أملك أي دليل يدعمها، وحتى لو صدّقوني فالأدلة التي أستطيع تقديمها لهم مبهمّة جداً، حتى لأشكّ في أن العدالة

ستأخذ مجراها.

هتفت قائلاً: لو أنها معضلة ترغب في حلّها فأنا أوصيك بأن تلجأ إلى صديقي السيد شيرلوك هولمز قبل أن تذهب إلى الشرطة.

فأجاب زائري: آه، لقد سمعت بهذا الرجل، وسوف أُسرّ كثيراً لو تولّى هذه القضية بنفسه. هل يمكن أن تعطيني بطاقة تعريف لأقدمها إليه؟

- سأصنع ما هو أفضل من ذلك؛ سأخذك إليه بنفسني.

- سأكون ممتناً لك غاية الامتنان.

- سنطلب عربة أجرة ونذهب معاً، وهكذا نصل في الوقت المناسب لتناول إفطار بسيط معه. أتحمس أنك قادر على ذلك؟

- نعم، فلن أشعر بالراحة حتى أحكي قصتي.

- سيطلب خادمي عربة أجرة إذن، وسأكون معك بعد لحظة.

ثم أسرع إلى الطابق العلوي لأشرح الأمر لزوجتي باختصار، وخلال خمس دقائق كنت برفقة الشخص الذي تعرفت إليه لتوّي في عربة صغيرة تقودنا إلى شارع بيكر.

* * *

كما توقعت كان شيرلوك هولمز مسترخياً في غرفة

الجلوس وقد ارتدى رداءه المنزلي وانهمك في قراءة صفحة الإعلانات الشخصية بجريدة «التايمز». استقبلنا بطريقته الهادئة اللطيفة وأمر بإحضار المزيد من شرائح اللحم والبيض ثم شاركنا وجبة إفطار مشبعة، وعندما انتهينا دعا صاحبنا الجديد إلى الجلوس على الأريكة ووضع وسادة تحت رأسه وكأساً من الماء في متناول يده، ثم قال: من الواضح أن تجربتك لم تكن عادية يا سيد هاترلي. أرجو أن ترقد على الأريكة وترتاح كما لو كنت في بيتك، وأخبرنا بما تستطيع، ولك أن تتوقف عندما تتعب.

فقال مريضني: شكراً لك، ولكنني أشعر بتحسن بعد أن



Sidney Paget (1892)

رسم سدني باجيت (١٨٩٢)

ضمد الطبيب جرحي، وأظن أن إفطارك قد أكمل الشفاء.
سأخذ من وقتك الثمين أقل وقت ممكن، وسأبدأ بحكاية
تجربتي الغربية على الفور.

جلس هولمز في مقعده الكبير المريح بتعبير متكاسل
وعينين نصف مغلقتين تخفيان وراءهما طبيعته اليقظة
المتحمسة، وجلست أنا في المقعد المقابل، وأخذنا نستمع
بصمت إلى القصة الغربية التي سرد زائرنا تفصيلاتها علينا.

قال الزائر: يجب أن تعرفا أنني يتيم وأعزب وأسكن
وحدي في مسكن في لندن، ومهنتي مهندس هيدروليكي،
وقد حصلت على خبرة كبيرة خلال السنوات السبع التي
تدربت فيها في شركة فينر وماثسون المعروفة في غرينتش.
ومنذ عامين أتممت فترة التدريب وحصلت أيضاً على مبلغ
جيد من المال بعد وفاة والدي، وعندها قررت أن أبدأ عملاً
خاصاً واستأجرت موقعاً مناسباً للعمل في شارع فكتوريا.

لا بدّ أن كل شخص يجد في بداياته المستقلة الأولى
في العمل تجربة كثيفة، وبالنسبة لي كان الأمر كذلك بشكل
كبير، فخلال عامين لم أحصل إلا على ثلاث استشارات
ومهمة واحدة صغيرة، هذا هو كل ما جلبه لي عملي، وقد
بلغ دخلي الإجمالي سبعة وعشرين جنيهاً وعشرة شلنات،
وكنت أنتظر كل يوم في مقر عملي من التاسعة صباحاً حتى
الرابعة بعد الظهر، حتى بدأت أقنّع أخيراً أنه لم يكن مناسباً
أن أفتح مكتبي الخاص على الإطلاق.

وفيما كنت أهمّ بمغادرة المكتب بالأمس دخل سكرتيري ليخبرني أن سيداً ينتظر ويرجو رؤيتي بخصوص عمل، وأحضر بطاقة تعريف مطبوعاً عليها اسم الكولونيل ليساندر ستارك. وفي أعقابه دخل الكولونيل بنفسه، وهو رجل يزيد حجمه على المتوسط، ولكنه نحيل جداً. لا أظن أنني رأيت رجلاً بمثل تلك النحافة من قبل، فقد ظهر وكأن كل وجهه قد تحول إلى أنف وذقن حادّين، بينما بدت بشرة خديه مشدودة جداً فوق عظامه الناتئة، وإن بدا واضحاً أن هذا الهزال جزء من طبيعة بنيته الجسميّة وليس من جرّاء مرض عُضال، فقد كانت له عينان لامعتان وبدت خطواته سريعة وتصرفاته واثقة، وكانت ملابسه بسيطة ولكنها مرتبة، وعمره -بتقديري- أقرب إلى الأربعين منه إلى الثلاثين.

قال بلكنة ألمانية بسيطة: لقد زكّوك لي يا سيد هاترلي، ليس لكونك ماهراً فحسب بل أيضاً كرجل ملتزم وقادر على حفظ السر.

فانحنيت وأنا أشعر بالزّهو كأني شاب يسمع مثل هذا الكلام، وقلت: هل أستطيع أن أسأل من الذي أعطاني هذه التزكية؟

- حسناً، ربما كان الأفضل أن لا أخبرك الآن، كما أنني عرفت من المصدر نفسه أنك يتيم وأعزب وتعيش وحيداً في لندن.

فأجبتة قائلاً: هذا صحيح تماماً، ولكن اعذرني لو

قلت إنني لا أعرف كيف تدعم كل هذه التفاصيل مؤهلاتي
المهنية، فقد فهمت أنك تودّ محادثتي في مسألة عمل.



Sidney Paget (1892)

رسم سدني باجيت (١٨٩٢)

- بلا شك ، ولكنك ستكتشف أن كل ما أقوله لك في صميم الموضوع ، فأنا أقدم لك عملاً ، ولكن الكتمان المطلق شرط أساسي فيه . الكتمان المطلق ، أتفهم؟ وبالطبع فإننا نتوقع ذلك من رجل وحيد أكثر مما نتوقعه من شخص يعيش في أحضان عائلته .

فقلت : إذا وعدتك بالسريّة فيمكنك أن تتأكد من أنني سأحافظ عليها .

نظر إليّ بحدّة شديدة وأنا أتكلم ، وبدالي أنني لم أقابل عيناً بمثل ذلك التشكك والتفحص من قبل ، وأخيراً قال :
أتعدني بذلك؟

- نعم ، أعدك .

- الكتمان المطلق والكامل ، قبل المهمة وأثناءها وبعدها؟
وأن لا تشير إلى الموضوع بتاتاً سواء بالكلام أو بالكتابة؟

- لقد سبق وأعطيتك كلمتي .

فقال : ممتاز .

ثم هبّ واقفاً فجأة وانطلق بسرعة البرق ليفتح الباب . كان الرواق خالياً ، وقال وهو يعود إلى مكانه : كل شيء بخير ، فأنا أعرف أن الموظفين قد يتتابههم الفضول ليعرفوا ما يخصّ أسيادهم ، أما الآن فنستطيع التحدث بحريّة .

سحب كرسيه فاقترب مني غاية الاقتراب ، ثم عاد ليحديق إليّ ثانية بنفس النظرة المتفحصة المتشككة ، فانتابني

شعور بالنفور وشيء أشبه بالخوف بسبب التصرفات الغريبة للرجل الهزيل، وحتى خوفاً من فقدان عميل لم يردعني عن إظهار نفاد صبري، فقلت: أرجو أن تخبرني عن العمل يا سيدي، فوقتي ثمين.

كان هذا ما قلته لزائري، وليغفر لي الله هذه الكذبة. فسألني: أيناسبك خمسون جنياً في ليلة عمل؟
- يناسبني بشكل ممتاز.

- أقول عمل ليلة، وإن كانت المهمة في الحقيقة لن تستغرق أكثر من ساعة، فأنا أريد رأيك في مكبس هيدروليكي لا يعمل كما ينبغي، وإذا ما أرشدتنا إلى سبب العطل فسوف نصلحه بأنفسنا. ما رأيك بهذه المهمة؟

- يبدو العمل هيناً والأجر سخياً.

- تماماً، نريدك أن تأتي إلينا الليلة في القطار الأخير.

- إلى أين؟

- إلى بلدة آيفورد في مقاطعة بيركشاير. إنها بلدة صغيرة بالقرب من حدود أكسفوردشاير وتبعد عن ريدنغ سبعة أميال. إذا ركبنا القطار من محطة بادنغتون فسوف يصل بك في نحو الساعة الحادية عشرة والرابع.

- ممتاز.

- وسأحضر في عربة لاستقبالك.

- أماننا مسافة لنقطعها بالعربة إذن؟

- نعم؛ إن مسكننا الصغير بعيد في الريف، فهو على بعد سبعة أميال من محطة آيفورد.

- إذن فلن نصل إلى المكان قبل منتصف الليل، فهل أجد قطاراً للعودة في ذلك الوقت أم أنني سأضطر إلى قضاء الليلة هناك؟

- نستطيع تدبير مكان لنومك بسهولة.

- هذا غريب جداً، ألا يمكن أن أذهب في وقت أكثر ملاءمة؟

- لقد قررنا أن حضورك في وقت متأخر أفضل، ونحن ندفع لك (وأنت شاب غير معروف) أجرة نستطيع بها شراء رأي أكبر الخبراء في مهنتك، وذلك لتعويضك عن أي إزعاج. ولكن بالطبع إذا أردت الانسحاب من هذا العمل فالقرار عائد إليك.

فكرت في الجنيهاات الخمسين وكيف ستكون مفيدة جداً لي فقلت: لا، أبداً، سيسعدني أن أتكيف مع ما تريد، ولكنني أرجو أن أفهم ما تريدني أن أفعله.

- تماماً، من الطبيعي أن يشير عهد السرية الذي أخذناه عليك فضولك، وليست لدي أي نية في إلزامك بشيء دون أن تعرف التفاصيل. هل أفترض أننا بأمان كامل من المتنصّتين؟
- تماماً.

- الوضع كما يأتي: أنت تعرف مسحوق القَصْر، وهو مسحوق يستعمل في تبييض الثياب. هذا المسحوق منتج ثمين ولا يوجد في إنكلترا إلا في أماكن قليلة.

- أعرف ذلك.

- وقد اشتريت منذ زمن قصير أرضاً صغيرة، صغيرة جداً، تبعد عن ريدنغ عشرة أميال، وحالفني الحظ فاكشفت ترسبات لمسحوق القَصْر في أحد حقولي، وبفحصه وجدت أن تلك البقعة صغيرة نسبياً وأنها تمثل وصلة بين حقلين أكبر كثيراً على اليمين وعلى اليسار، وكلاهما في أراضي جيراني. هؤلاء الناس الطيبون غافلون تماماً عن أن أرضهم تحتوي على ذلك العنصر الذي يعادل في قيمته منجماً للذهب، وبطبيعة الحال رغبت في شراء أراضيهم قبل أن يعرفوا القيمة الحقيقية، ولكن من سوء حظي أنني لا أملك رأس المال الذي أستطيع به تنفيذ ذلك، فاستشرت بعض الأصدقاء المقربين، فاقترحوا أن نستخرج مخزوننا الصغير ونبيعه بسرية وهدوء، وبهذا نستطيع كسب ما يمكّننا من شراء الحقول المجاورة. وهذا هو ما نفعله الآن ومنذ بعض الوقت. وقد استخدمنا مكبساً هيدروليكيّاً ليساعدنا في مهمتنا، وهذا المكبس - كما شرحت لك - تعطل ونريد منك أن تنصحننا بشأنه. ومع أننا نحافظ على سرّنا بحرص فلو عرف الناس أن مهندساً هيدروليكيّاً جاء إلى منزلنا الصغير فسوف يبدؤون بالتساؤل على الفور، وعندها قد تظهر الحقيقة ونفقد الفرصة لشراء تلك الحقول ونفشل خططنا كلها. لهذا طلبت منك الوعد بأن لا تخبر مخلوقاً بقدمك إلى

آيفورد الليلة. أرجو أن أكون قد أوضحت كل شيء.

قلت: فهمتك تماماً، لكن النقطة الوحيدة التي لم أفهمها هي دور المكبس الهيدروليكي في استخراج التراب، فهو يُستخرج بالحفر كما فهمت؟

فقال بلامبالاة: آه، إن لنا طريقتنا الخاصة، فنحن نضغط التراب حتى يتحجر ثم نقله دون أن يعرف أحد ما هو. ولكن هذا الأمر مجرد تفصيلات ثانوية على أية حال. لقد وثقت بك تماماً يا سيد هاترلي وأظهرت لك كم أثق بك.

ثم نهض وهو يتكلم قائلاً: سأنتظرك إذن في الحادية عشرة والرابع.

- سأكون هناك بالتأكيد.

- وإياك أن تنطق بحرف عن هذا الأمر لأي مخلوق.

قال ذلك وحدّق إليّ بنظرة أخيرة متشككة طويلة، ثم أمسك بيدي وضغط عليها بقبضة باردة رطبة وأسرع خارجاً من الغرفة.

حسناً، عندما أفكر في الأمر الآن بهدوء أجد أنني كنت مدهوشاً جداً بهذه المهمة المفاجئة التي كُلفت بها، فمن ناحية كنت سعيداً بالطبع لأن الأجر يماثل عشرة أمثال ما كنت سأطلبه مقابل خدماتي، ومن الممكن أن تتبع هذا الطلب طلباتٍ أخرى، ومن ناحية أخرى ترك وجه عميلي وتصرفاته انطباعاً سيئاً في نفسي، ولم أقتنع بأن تفسيره الخاص بمسحوق

القصر كان كافياً لتبرير ضرورة ذهابي في منتصف الليل،
بالإضافة إلى قلقه الشديد خشية أن أخبر أحداً بمهمّتي. إلا
أنني ألقيت بكل شكوكي وراء ظهري، وأكلت وجبة ضخمة
ثم ركبت حتى بادنغتون وبدأت رحلتي.



Sidney Paget (1892)

رسم سدني باجيت (١٨٩٢)

وقد أطعت الأمر بالكتمان حرفياً. غيّرت القطار في ريدنغ، واستطعت اللحاق بالقطار الأخير المتجه إلى آيفورد فوصلت إلى المحطة الصغيرة المعتمدة بعد الحادية عشرة. كنت المسافر الوحيد الذي نزل هناك، ولم أجد على الرصيف أحداً سوى حمّال نعلان يمسك مصباحاً، فعبرت البوابة الصغيرة ووجدت الشخص الذي تعرفت إليه في الصباح ينتظرنني في الظل على الجانب الآخر، فجذب ذراعي دون أن ينبس بكلمة وحثني على الإسراع بالدخول إلى العربة التي كان بابها مفتوحاً، ثم أغلق النوافذ على الجانبين ودقّ على الجزء الخشبي، فابتعدنا بأسرع ما يستطيع الحصان، ثم...

قاطعه هولمز قائلاً: حصان واحد؟

- نعم، واحد فقط.

- هل لاحظت لونه؟

- نعم، لقد رأيته على ضوء المصابيح الجانبية وأنا أدخل إلى العربة.

- هل بدا عليه التعب أم النشاط؟

- بل بدا نشيطاً لامعاً.

- شكراً. أعتذر عن مقاطعتك، وأرجو أن تستمر في قصّ حكايتك الشيقة.

- ابتعدنا كثيراً، فقد قطعنا الطريق في ساعة على الأقل، وبالرغم من أن الكولونيل ستارك قال إن الطريق بطول سبعة

أميال فقط فإنني أعتقد -اعتماداً على المعدّل الذي كنا نسير به وعلى الوقت الذي استغرقتّه الرحلة- أن المسافة تزيد على اثني عشر ميلاً.

جلس الرجل صامتاً طوال الوقت بجانبني، وأحسست أكثر من مرة حين نظرت إليه أنه يرمقني بنظرات جانبية شديدة الحدة. ويبدو أن الطرق الريفية سيئة في ذلك الجزء من العالم، لأننا أخذنا نتمايل ونتخبط، فحاولت النظر من النوافذ لأرى أين كنا، ولكنها كانت من الزجاج المُصنّف فلم أستطع تمييز شيء سوى اللمعان الضبابي لبعض الأنوار العابرة بين حين وآخر. وقد جازفت بإلقاء بعض الملاحظات لأكسر رتابة الرحلة، ولكن الكولونيل كان يجيب بجمل مقتضبة فقط، فسرعان ما توقفت المحادثة.

وأخيراً تبدّل الطريق السيئ فصار ناعماً كطريق معبّد بالحصى، ثم توقفت العربة وقفز الكولونيل ستارك خارجاً، وحين هممت بالنزول خلفه سحبني بسرعة إلى مدخل مسقوف أمامنا، فدخلنا مباشرة من العربة إلى القاعة. وهكذا فشلت في أن أرى المدخل ولو بلمحة عابرة، كما أن الباب قد صُفّق بشدة خلفنا في اللحظة التي اجتزت فيها العتبة، وسمعت صوت قرعة العجلات بينما كانت العربة تتعد.

ساد الظلام الدامس داخل المنزل وأخذ الكولونيل يتحسس بحثاً عن كبريت وهو يتمتم، وفجأة فُتح باب في نهاية الممر واندفع شعاع طويل من الضوء الذهبي باتجاهنا،

ثم اتسعت مساحة الضوء وظهرت امرأة تمسك بيدها مصباحاً وترفعه فوق رأسها وهي تحملق إلينا. استطعت رؤية جمالها، ومن اللمعة التي عكسها الضوء على ثوبها الأسود عرفت أنه من قماش غالي الثمن.

تكلّمت بضع كلمات بلغة أجنبية وبنبرة توحى بأنها كانت تسأل سؤالاً، وعندما أجاب الكولونيل بطريقة خشنة مقتضبة جفّلت حتى كاد المصباح يقع من يدها، فاقترب منها وهمس في أذنها بضع كلمات، ثم دفعها إلى داخل الغرفة التي خرجت منها ومشى ناحيتي ثانية والمصباح في يده، وقال وهو يفتح باباً آخر: أرجو أن تتكرم وتنتظر في هذه الغرفة لبضع دقائق.

كانت غرفة هادئة صغيرة بسيطة الفرش، وفي وسطها طاولة مستديرة عليها كتب ألمانية مبعثرة. وضع الكولونيل ستارك المصباح فوق آلة موسيقية كانت بجوار الباب وقال: لن أتركك طويلاً. ثم تواري في الظلام.

ألقيت نظرة على الكتب المبعثرة على الطاولة، ورغم جهلي باللغة الألمانية إلا أنني استطعت معرفة أن اثنين منها كانا عن أبحاث في العلوم، أما الكتب الأخرى فكانت في الشعر. بعد ذلك ذهبت إلى النافذة أملاً في رؤية بعض المناظر الريفية، ولكنني وجدتها مسدودة بمصراعين من خشب البلوط مغلقين بإحكام بمزلاج قوي.

كان المنزل هادئاً بشكل عجيب، ولولا دقائق عالية تصدر عن ساعة قديمة في مكان ما من الممر لعمّ السكون

القاتل كل شيء. وبدأ شعور غامض بعدم الراحة يتسلل إلى نفسي، فمن هم هؤلاء الناس الألمانيون؟ ولماذا يعيشون في هذا المكان الغريب البعيد؟ وأين هو هذا المكان؟ لقد كنت على مسافة عشرة أميال أو نحو ذلك من آيفورد، هذا كل ما أعرفه، ولكنني لا أعرف ما إذا كان ذلك باتجاه الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب! وبما أن ريدنغ ومدناً كبيرة أخرى قد تكون ضمن هذا المجال فالمكان قد لا يكون منعزلاً جداً، ولكنه يقع في قلب الريف بالتأكيد بدليل السكون التام.

أخذت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وأنا أذندن بنغمة خافتة حتى أحتفظ بمعنويات عالية وأشعر بأنني أستحق الجنيهاً الخمسين. وفجأة وبلا أي صوت تمهيدي وسط السكون المطلق فُتح باب الغرفة ببطء ووقفت المرأة في فتحة الباب والضوء الأصفر من المصباح ينعكس على وجهها القلق الجميل، وأدركت بلمحة واحدة أنها كانت شديدة الخوف فسرت في قلبي القشعريرة بسبب منظرها. رفعت إصبعاً مرتعشاً لتحذرنى لكي أصمت، ثم كلمتني بضع كلمات سريعة بلغة إنكليزية ركيكة وعيناها تنظران إلى العتمة خلفها كحصان خائف، فقالت وهي تحاول أن تتكلم بأقصى ما تستطيع من الهدوء: لو كنت مكانك لغادرت. لا يجب أن تبقى هنا... ليس من الخير لك أن تفعل.

فقلت: ولكن أنا لم أنفذ بعد المهمة التي جئت من أجلها يا سيدتي، وليس من الممكن أن أغادر قبل أن أرى الآلة.

فاستمرت قائلة: إن الأمر لا يستحق تعبك، يمكنك الخروج من الباب ولن يعيقك أحد.

وعندما رأني أهز رأسي وأبتسم رمّت بتحفظها جانباً وخطت إلى الأمام قائلة: اخرج من هنا بالله عليك قبل فوات الأوان.

ولكنني عنيد بطبيعتي، وتزداد رغبتني في العمل عندما أجد عقبات في طريقي. فكرت في الجنيهاً الخمسين، أجرة عملي، وفي رحلتي المرهقة وفي الليلة البغيضة التي بدا لي أنني تجاوزتها، فهل أترك كل شيء يذهب بلا ثمن؟ ولماذا أنسلّ هارباً دون أن أنفذ مهمتي؟ وما أدراني، فقد تكون هذه المرأة مجنونة؟ لذلك ومع أن تأثير تصرفها في نفسي كان أكبر مما أودّ الاعتراف به إلا أنني اتخذت موقفاً شجاعاً، فهزرت رأسي معلناً نيّتي في البقاء حيث أنا. وكانت على وشك تجديد توّسّلاتها حين صُفّق باب في الأعلى وسُمع صوت خطوات على الدرّج، فأرهِفَت السمع ورمّت يديها إلى الأعلى بحركة يائسة، ثم اختفت فجأة بلا ضجّة كما ظهرت.

كان القادمون الجدد هم الكولونيل ستارك ورجل قصير سمين ذو لحية كثّة تكسو ثنايا ذقنه، وقد قدّم لي على أنه السيد فيزغسون. قال الكولونيل: إنه مساعدي ومدير أعمالني. وبالمناسبة، أظن أنني تركت هذا الباب مغلقاً، أخشى أن تكون قد شعرت بتيّار هواء بارد؟

فقلت: على العكس، لقد فتحت الباب بنفسني لأني

أحسست أن هواء الغرفة مكتوم جداً.

فرمقني بإحدى نظراته المتشككة وقال: لعل من الأفضل
أن نبدأ بالعمل إذن. سأخذك أنا والسيد فيرغسون إلى الآلة في
الأعلى.



Sidney Paget (1892)

رسم سدني باجيت (١٨٩٢)

- إذن فمن الأفضل أن أضع قبعتي على رأسي.

- لا داعي لهذا؛ إنها داخل المنزل.

- ماذا؟! أنتستخرج مسحوق القصر في داخل المنزل؟

- لا، لا؛ هذا هو المكان الذي نكبسه فيه فقط. ولكن دعنا من ذلك، كل ما نريدك أن تفعله هو أن تفحص الآلة وتخبّرنا بالعيب فيها.

صعدنا إلى الدور العلوي معاً، يتقدمنا الكولونيل ومعه المصباح ووراءه المدير السمين، وأنا خلفهما. كان المنزل القديم كالمتاهة بأروقة وممرات ودرج دائري ضيقّ وأبواب منخفضة متآكلة العتبات بتأثير الأجيال التي عبّرتها. لم يكن على الأرض سجاد ولا أثر لأي أثاث عدا الموجود في الطابق السفلي، بينما تقشر الطلاء عن الجدران وتسربت الرطوبة لتظهر في شكل بقع خضراء غير صحيّة.

حاولت أن أبدي عدم اكتراثي قدر الإمكان، وإن كنت لم أنسّ تحذير السيدة بالرغم من تجاهلي له، ولذلك فقد أخذت حذري من رفيقيّ. وقد بدا فيرغسون رجلاً كئيباً صامتاً، ولكنني فهمت من القليل الذي قاله على الأقل أنه من الريف الإنكليزي.

توقف الكولونيل ستارك أخيراً أمام باب منخفض، ثم فتحه وتقدّمني لأدخل بعده إلى غرفة مربعة صغيرة لم تكن تتسع لثلاثتنا مرة واحدة، فظلّ فيرغسون في الخارج.

قال ستارك: نحن الآن داخل المكبس، وسيكون أمراً غير لطيف لو قام أحد بتشغيله! إن سقف هذه الغرفة الصغيرة هو في الحقيقة الجزء الهابط في المكبس، وهو يهبط بقوة عدة أطنان على هذه الأرضية المعدنية، وفي الخارج عدة أعمدة جانبية صغيرة من الماء هي التي تستقبل الضغط لتقله وتضغطه بالطريقة التي تعرفها. الآلة تبدأ العمل بسهولة، ولكننا نجد بعض التصلب في عملها، وقد فقدت القليل من قوتها أيضاً، فهلاً تكرمت بأن تفحصها وتدلنا على طريقة إصلاح العيب؟

أخذت منه المصباح وفحصت الآلة بدقة شديدة. كانت حقاً آلة بالغة الضخامة وقادرة على توليد ضغط هائل، ولكن عندما خرجت وضغطت الروافع التي تتحكم بها إلى الأسفل دلّني صوت الأزيز على الفور أن فيها تسرباً بسيطاً يسمح باندفاع الماء خلال إحدى الأسطوانات الجانبية. وأظهر الفحص أن أحد الأربطة المطاطية التي كانت تحيط بقمة عمود الدفع قد تقلص بحيث لم يعد يسدّ تماماً التجويف الذي يوضع عليه، وكان من الواضح أن هذا هو سبب فقدان قوة الضغط.

وضّحت الأمر لمرافقيّ اللذين استمعا إلى ملاحظاتي بحرص شديد وسألاً عدة أسئلة عملية عن الطريقة التي يجب أن يتبعاها لإصلاح الآلة. وعندما أوضحت لهما الأمر عدت إلى غرفة الآلة وألقيت عليها نظرة لأرضي فضولي، ولم أحتج إلا لنظرة واحدة لأدرك بوضوح أن موضوع مسحوق القصر كان مجرد اختلاق، فمن المنافي للعقل أن نفترض أن مثل هذا المحرك القوي قد صُمم لذلك الغرض البسيط. كانت الجدران

من الخشب، أما الأرضية فكانت وعاء حديدياً واسعاً، وعندما فحصته لاحظت أنه مُغطى بقشرة من الرواسب المعدنية، فانحنيت وأخذت أكشطها محاولاً معرفتها حين سمعت صيحة تعجب بالألمانية ورأيت وجه الكولونيل الشاحب ينظر إليّ من الأعلى، وسأل قائلاً: ماذا تفعل هناك؟!

شعرت بالغضب لأنني خُدعت بتلك القصة المتقنة التي أخبرني بها، فقلت: كنت أتأمل مسحوق القصر بإعجاب، وأظن أن بإمكانني أن أفدّم لك نصيحة أفضل بشأن آلتك إذا ما عرفت الغرض الذي تُستخدم من أجله.

لكنني سرعان ما ندمت على تسرعني في الحديث في اللحظة التي نطقت فيها بهذه الكلمات، فقد قست ملامح وجهه وقدحت عيناه الرمادية شرراً وقال: حسناً، ستعرف عن هذه الآلة كل شيء. ثم خطا خطوة إلى الخلف ووقف الباب الصغير وأدار المفتاح في القفل.

أسرعت إلى الباب ورحت أجذب المقبض، إلا أنه كان مُغلقاً بإحكام فلم يتزحزح ولو قليلاً أمام ركلاتي وضرباتي، فصرخت قائلاً: أيها الكولونيل، أخرجني!

بعد ذلك سمعت فجأة صوتاً جعل قلبي يقفز من مكانه، كان صوت صلصلة الروافع وأزيز الأسطوانة المثقوبة؛ لقد شغل المحرك! كان المصباح لا يزال على الأرض حيث تركته عندما انحنيت لفحص الوعاء، فرأيت في ضوئه السقف الأسود وهو يهبط باتجاهي ببطء وبحركة مُتقطعة، ولكن بقوة

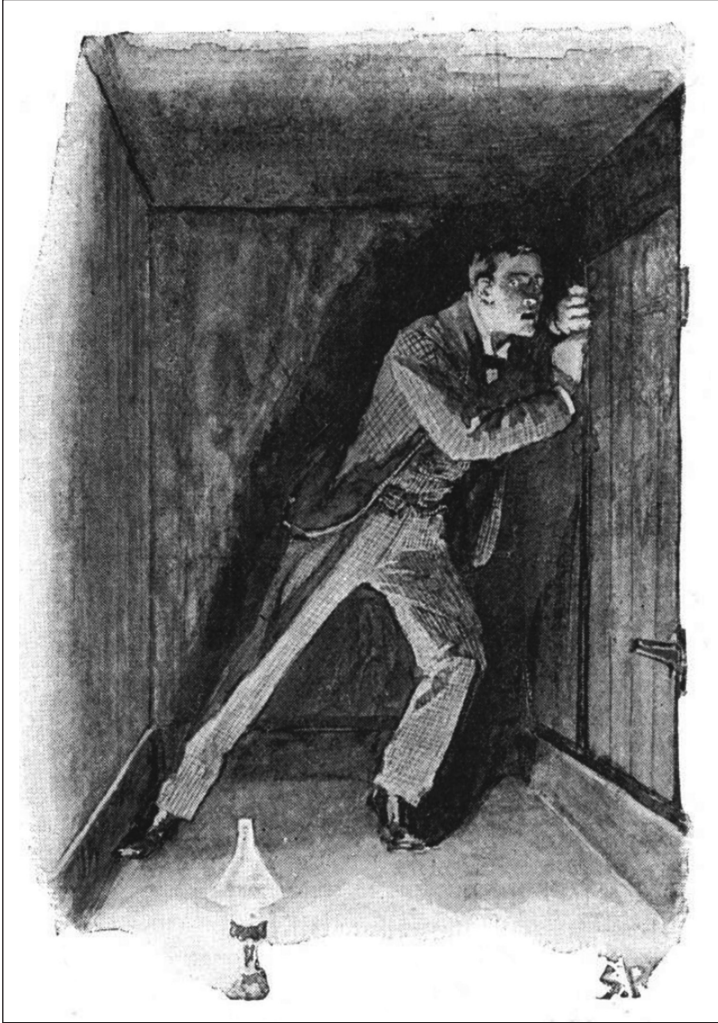
قادرة - كما أعرف أكثر من أيّ شخص آخر - على أن تسحقني
وتحوّلني في لحظة إلى عجينة لا شكل لها!

رمى نفسي على الباب وأنا أصرخ وأشدّ القفل
بأظفري، وأخذت أتوسل إلى الكولونيل ليسمح لي بالخروج،
ولكن صرخاتي تلاشت أمام صلصلة الروافع الحادّة، وصار
السقف على بُعد قدم أو قدمين من رأسي، فكنت أستطيع
حين أرفع يدي أن أشعر بصلابة سطحه وخشونته. ثم ومضت
في ذهني فكرة أوحى لي بأن الألم الذي ساعانيه قبل موتي
يعتمد إلى حد كبير على الوضع الذي سأكون فيه، فلو نمت
على وجهي فسوف يهبط الثقل على عمودي الفقريّ، فاقشعرّ
بدني حين فكرت بالصوت المريع الذي سينتج عن ذلك! قد
يكون الوضع أسهل لو نمت على ظهري، ولكن هل أملك من
الشجاعة ما يجعلني أنام وأنظر إلى ذلك الظل الأسود القاتل
وهو يتمايل إلى الأسفل باتجاهي؟

كان السقف قد دنا مني أكثر وأكثر ولم أعد قادراً على
الوقوف بجسم منتصب حين وقعت عيناى على شيء بعث
الأمل في قلبي.

قلت لكما إن السقف والأرضية كانا من الحديد إلا أن
الجدران كانت من الخشب، وبينما كنت أنظر حولي بسرعة
رأيت بنظرة أخيرة خيطاً دقيقاً من الضوء الأصفر يبدو بين
لوحين من الخشب، ثم أخذت رقعة الضوء تتسع وتتسع حين
دُفِع أحد الألواح الصغيرة إلى الخلف، وللحظة لم أصدق

أن هناك حقاً مخرجاً يقودني بعيداً عن الموت. وفي اللحظة التالية رميت بنفسي عبره ووقدت وأنا في شبه غيبوبة في الناحية الأخرى. كان اللوح قد أُغلق ثانية بعد خروجي، إلا



Sidney Paget (1892)

رسم سدني باجيت (١٨٩٢)

أنني أدركت من صوت تحطم المصباح وبعده بلحظات صوت
قرقعة اللوحين المعدنيين أنني قد أفلتُ في اللحظة الأخيرة.

أعدتني إلى رشدي شدة هائجة لمعصمي، ووجدت
نفسي راقدًا على الأرض الصخرية للرواق الضيق فيما انحنت
فوقي امرأة وراحت تشدني بيدها اليسرى وهي تمسك شمعة
بيدها اليمنى. كانت نفس الصديقة الطيبة التي رفضتُ الاستماع
إلى تحذيرها، وصاحت بأنفاس مُتقطعة: تعال، تعال،
سيحضران إلى هنا بعد لحظة عندما يكتشفان أنك لست هناك.
آه، لا تضيع هذا الوقت الثمين، تعال!

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمل
أن تكون قد استمتعت بقراءة جزء من هذه
المجموعة القصصية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب
(وسواء من الإصدارات) من موقعنا مباشرة،
ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو
احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com